المركز الجامعي مغنية

مقياس: البيئة والتنمية المستدامة **من إعداد: د. نهاري سلمى**

المحاضرة السادسة: الاتجاهات النظرية والسوسيولوجية في دراسة البيئة1:

الهدف: تعريف الطالب بالنظريات السوسيولوجية الكلاسيكية في دراسة البيئة، وفهم كيفية مقاربتها للعلاقة بين المجتمع والطبيعة.

***1/* المدارس النظرية لدراسة البيئة والمجتمع:**

النظرية الحتمية البيئية

أعطى أصحاب هذه النظرية للبيئة التأثير الأكبر على الكائنات الحية ومنها الإنسان، وتؤكد على أن سلوك الإنسان خاضع للظروف البيئية التي يعيش فيها، وأن عناصر البيئة الطبيعية هي التي تتحكم في السلوك البشري، وما على الإنسان إلا التكيف مع بيئته.

ويُعتبر ابن خلدون من رواد الحتمية البيئية حين تحدث في مقدمته عن العمران البشري، حيث ذكر أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمرانا من الربع الجنوبي. وقد كان في تقسيمه للأرض إلى أقاليم طبيعية طبقا للمناخ متأثرا بجغرافيا الإغريق التي وصلت إلى العرب، غير أنه تجاوز ذلك إلى الحديث عن أثر المناخ في طبائع الشعوب وأخلاق البشر. فقد جاء في المقدمة الرابعة أن خلق السودان على العموم يتصفون بالخفة والطيش وكثرة الطرب، فهم مولعون بالرقص، متصفون بالحمق. ولما كان هؤلاء يسكنون في الإقليم الذي استولى فيه الحر على أمزجتهم وأصل تكوينهم، انعكس ذلك على أرواحهم فجعلها أشد حرارة وأكثر انبساطا، فيكونون أسرع فرحا وسرورا وأكثر ميلا للطيش. ويلحق بهم إلى حد ما أهل البلدان البحرية حيث يظهر أثر الحرارة أيضا، بخلاف سكان التلال والجبال الباردة.

كما تطرق ابن خلدون إلى موضوع نشأة المدن والأمصار، وما يجب مراعاته في أوضاعها، مثل ضرورة حمايتها بالأسوار، وتوخي اختيار أماكن طبيعية صالحة،

والبعد عن المستنقعات أو المياه الراكدة الفاسدة، إضافة إلى ما ينبغي مراعاته في المدن الساحلية المطلة على البحر[1].

وتناول كذلك أثر المكان في أحوال الناس، والتي توزعها بين:

الأحوال الثقافية: وتشمل القيم والمعاني والمعايير إلى جانب الجانب المادي من الثقافة كالعمارة والتكنولوجيا.

الأحوال الاجتماعية: وتشير إلى النظم الاجتماعية والجماعات البشرية والأدوار المختلفة وطبيعة العلاقات التي تسودها.

الأحوال الشخصية: وتشير إلى الميول والانتماءات والرغبات الخاصة.

ويرى ابن خلدون أن "الإقليم الرابع" (الذي يمثل قارة آسيا في تقسيمه إلى ثمانية أجزاء) هو أعدل الأقاليم وأكثرها اعتدالا، ولذلك فإن سكانه كانوا أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا، حتى أنه ربط الاعتدال فيه ببعثة الأنبياء، باعتبار أن السكان قد بلغوا مستوى من النضج العقلي والفكري يمكّنهم من إدراك الحقائق والتصديق بالرسل على أسس عقلانية وموضوعية.

ويذهب ابن خلدون إلى حد أبعد حين اعتبر أن البيئة الطبيعية – وفق تقسيم الأقاليم – تؤثر أيضا في التكوين العقلي للأفراد واكتمال نضجهم الفكري، وهو ما يرتبط عنده بقدرتهم على استيعاب الرسالات السماوية. وقد أكد أن أهل الأقاليم المعتدلة أكثر وسطية في مساكنهم وملابسهم وأموالهم وصناعاتهم، وأكثر حرصا على الرقي في البناء والفنون.

وبتحليله الدقيق للعلاقة بين طبائع الناس والبيئة، يكون ابن خلدون قد قدّم صورة أكثر تفصيلا للحتمية البيئية مقارنة بالإغريق الذين سبقوه[2].

النقد الموجه للحتمية البيئية:

رغم أهمية البيئة كعامل مؤثر في حياة الإنسان وسلوكه، إلا أن الإيمان المطلق بحتميتها يعد مبالغة. فالإنسان يخضع أيضا لعوامل أخرى تاريخية واجتماعية وثقافية. على سبيل المثال، لعب العامل التكنولوجي دورا أساسيا في الحد من العوائق البيئية، إذ إن بعض الدول التي يفرض موقعها الجغرافي عليها العزلة – مثل اليابان – تمكنت بفضل التقدم التكنولوجي الهائل من تجاوز هذه العزلة وأصبحت دولة وثيقة الصلة بالعالم.

---

[1] سعاد عبد الله العالي الغامدي و نورة محمد لاحق الودعاني، سوسيولوجيا البيئة، مجلة الخدمة الاجتماعية، 2022

[2] نفس المرجع السابق

المدرسة الاختيارية (الإمكانية)

مفهوم المدرسة الاختيارية أو الإمكانية ظهر نتيجة الانتقادات التي وُجّهت لمدرسة الحتمية البيئية بسبب مبالغتها في تفسير العلاقة بين الإنسان والبيئة، إذ ركّزت الحتمية على قوة الطبيعة وهيمنتها، مغفلة بذلك ما يمتلكه الإنسان من قدرات عقلية وإبداعية. جاءت المدرسة الإمكانية كرد فعل، لتؤكد أن العلاقة بين الإنسان والبيئة ليست علاقة خضوع مطلق، بل علاقة مرنة تقوم على إمكانية الاختيار والتكيّف.

تؤكد هذه المدرسة أن الإنسان قادر على التغيير والتطوير، وأن البيئة الطبيعية تقدّم مجموعة من البدائل والفرص، ليختار منها ما يناسب طموحاته واحتياجاته. فهي لا ترى الطبيعة قوة حتمية صارمة، وإنما مجالاً مفتوحًا للاختيارات الإنسانية، حيث يستطيع الإنسان بذكائه وإرادته أن يطوّعها، مثلما حدث مع مشروعات الري وبناء السدود أو استغلال التكنولوجيا للعيش في البيئات القاسية كالصحارى أو المناطق القطبية.

وتعتبر الجغرافيا الاجتماعية امتدادًا لهذه النظرة، فهي تربط تكوين المجتمع بعلاقته بالبيئة، لكن من منظور اجتماعي أكثر من كونه طبيعيًا، إذ لا يمكن فهم المجتمع دون الأساس الجغرافي، ولا يمكن دراسة البيئة دون الأخذ في الاعتبار دور الإنسان. وقد أشار دوركايم إلى ضرورة دراسة المجتمعات البشرية على أسس اجتماعية، لكنه لم يُغفل البعد الجغرافي الذي يُمثل القاعدة التي تُبنى عليها الحياة الاجتماعية.[3]

ازدهرت هذه المدرسة بداية القرن العشرين، خاصةً مع التقدم الصناعي والتكنولوجي، الذي مكّن الإنسان من السيطرة على الظروف الطبيعية. فقد ظهر أثرها جليًا في إنجازات حضارات قديمة مثل الحضارة المصرية، التي بنت الجسور والسد العالي، واستغلت الموارد الطبيعية في الزراعة والصناعة. كما يرى فيدال دي لا بلاش، أحد أبرز رواد المدرسة الفرنسية، أن البيئة إنسانية أكثر من كونها طبيعية، وينبغي دراستها تاريخيًا من خلال جهود الإنسان في تكييفها. وأضاف لوسيان فيفر وإسحق بومان أن المظاهر البيئية في حقيقتها هي نتاج عمل

[3] ساعد هماش، سوسيولوجية البيئة في ظل المدارس النظرية والاتجاهات المفسرة، مجلة الباحث الاجتماعي، العدد 13، 2017، ص187

الإنسان، مثل الحقول الزراعية والسدود، بل وحتى مواقع المدن التي يحددها الإنسان لعوامل اجتماعية وثقافية ودينية وعسكرية، لا لمجرد وجودها الطبيعي.

كما ساهمت المدرسة الإمكانية في ظهور مصطلحات مهمة في الفكر الجغرافي، مثل "المظهر الطبيعي" و"المظهر البشري"، التي ميزت بين عناصر البيئة وأعمال الإنسان. لكنها في الوقت ذاته لم تنكر حدود الإنسان أمام بعض الظواهر الطبيعية، مثل قلة الأمطار أو قسوة المناخ، التي تعيق التوسع أو الاستقرار. غير أن الفارق يكمن في قدرة الإنسان المتحضر على مواجهة هذه التحديات أكثر من الإنسان البدائي.

وبالرغم من ذلك، فإن المدرسة الإمكانية قدّمت تصورًا أكثر منطقية وتوازنًا من المدرسة الحتمية، إذ منحت الإنسان مكانة فاعلة كشريك في تشكيل البيئة، معترفة في الوقت نفسه بوجود حدود طبيعية لا يمكن تجاوزها بالكامل. وبذلك اعتبرت الإنسان عنصرًا إيجابيًا قادرًا على الإبداع، التأقلم، والابتكار في مواجهة التحديات البيئية، مما جعلها أكثر واقعية ومنسجمة مع التطورات العلمية والاجتماعية.[4]

المدرسة الاحتمالية أو التوافقية:

نشأة المدرسة:

ظهرت المدرسة الاحتمالية – التي يطلق عليها أيضًا المدرسة التوافقية – كتيار وسطي حاول التوفيق بين المدرسة الحتمية البيئية التي أكدت على سيطرة الطبيعة الكاملة على الإنسان، والمدرسة الإمكانية التي رأت أن الإنسان يمتلك حرية كاملة في استغلال البيئة. فكانت الاحتمالية بمثابة رؤية معتدلة تعترف بالدور الحاسم لكل من البيئة والإنسان معًا في بناء الحضارة وتشكيل المجتمعات[5].

الفكرة الجوهرية:

ترى هذه المدرسة أن العلاقة بين الإنسان والبيئة ليست علاقة سيطرة أحادية الطرف، بل علاقة تفاعل متبادل:

فالبيئة تفرض بعض القيود وتضع حدودًا طبيعية لا يمكن للإنسان تجاوزها كليًا.

---

[4] نفس المرجع السابق ص188

[5] نفس المرجع السابق ص189

في الوقت نفسه، يستطيع الإنسان أن يؤثر في بيئته، يطوّعها، ويستغل مواردها بدرجات متفاوتة حسب قدراته المادية والمعرفية والتكنولوجية.

إذن، ليست البيئة وحدها هي المحدد المطلق، وليست حرية الإنسان مطلقة تمامًا، وإنما النتيجة النهائية تتوقف على طبيعة التفاعل بين الطرفين[6].

الأسس النظرية للتوافقية:

اعتمدت هذه المدرسة على تصنيف طرفي العلاقة:

1. **البيئة:**

بيئة صعبة (مثل الصحاري القاحلة أو المناطق الجليدية): تتطلب جهدًا كبيرًا وابتكارًا من الإنسان للتكيف معها.

بيئة سهلة (مثل الأودية الخصبة أو السواحل المعتدلة): تستجيب لمجهود بسيط، وقد تمنح فرصًا أوفر للإنسان.

2. **الإنسان:**

إنسان إيجابي: يمتلك قدرات فكرية وتنظيمية وتقنية، وقادر على الإبداع والتغيير.

إنسان سلبي: محدود الإمكانيات والقدرات، يفتقر إلى الطموح والإبداع.

بناءً على ذلك، قدّمت التوافقية أربعة أنماط أساسية للعلاقة:

بيئة صعبة + إنسان سلبي = حتمية بيئية** (الإنسان يخضع للبيئة كليًا).

بيئة سهلة + إنسان سلبي = إمكانية بسيطة** (الإنسان يستفيد بشكل محدود من البيئة).

بيئة صعبة + إنسان إيجابي = توافقية (الإنسان يبتكر حلولًا لمواجهة الصعوبات).

بيئة سهلة + إنسان إيجابي = توافقية (الإنسان يحقق تنمية مستدامة ويبدع حضاريًا).

إسهامات أرنولد توينبي:

---

[6] نفس المرجع السابق 189

ارتبطت التوافقية كثيرًا بأفكار المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي (1889-1975) الذي بلور مفهوم "التحدي والاستجابة".

حسب توينبي، فإن البيئة تقدم تحديات للشعوب، والفرق بين المجتمعات يكمن في كيفية استجابتهم لهذه التحديات[7].

وقد صنّف استجابات الإنسان إلى البيئة في أربع صور:

1. **استجابة سلبية**: عجز الإنسان عن الاستفادة من بيئته.
2. **استجابة تأقلم**: خضوع نسبي لعوامل البيئة مع محاولات للتكيف.
3. **استجابة إيجابية**: تطويع البيئة لصالح الإنسان.
4. **استجابة إبداعية**: ابتكار حلول تتجاوز مجرد التكيف، وتفتح المجال أمام تقدم حضاري كبير.

يرى توينبي أن التقدم الحضاري لا يقوم فقط على غنى البيئة وسخائها، بل يحتاج إلى عوامل اجتماعية ومعنوية مثل التضامن، الاستقرار السياسي، والثقافة المشتركة.

الخصائص المميزة للمدرسة التوافقية:

1. **الواقعية**: لم تُغلب الطبيعة على الإنسان كما فعلت الحتمية، ولم تُغلب الإنسان على الطبيعة كما فعلت الإمكانية.

2. **التوازن**: أكدت على التكامل بين البيئة والإنسان بدلًا من الصراع أو الهيمنة.

3. **المرونة**: ربطت نتائج العلاقة بطبيعة الظروف (بيئة سهلة/صعبة، إنسان إيجابي/سلبي).

4. **التاريخية:** أبرزت أن استجابة الإنسان تختلف عبر العصور حسب مستوى المعرفة والتكنولوجيا[8].

الانتقادات الموجهة للتوافقية:

---

[7] نفس المرجع السابق ص 190

[8] نفس المرجع السابق 190

رغم واقعيتها، وُجهت لها انتقادات بأنها غامضة لأنها لا تقدم معيارًا دقيقًا لتحديد متى تكون البيئة هي العامل الغالب، ومتى يكون الإنسان هو الغالب.

اعتبر بعض الباحثين أنها نظرية توفيقية أكثر منها إطارًا علميًا صارمًا، لأنها مزجت بين رؤيتين متناقضتين دون صياغة منهج تجريبي واضح.

مع ذلك، تبقى التوافقية إطارًا مهمًا في فهم العلاقة المعقدة والمتشابكة بين البيئة والإنسان.